تثمين منتجات الرستاق أداة للتنمية، واستدامة الموارد الترابية
حالة رستاق منتزه جيوبارك مـــكْون في إقليم أزيلال نموذجا

الباحث: صلاح الدين أعجان
تحت إشراف وتأطير: د. ادريس شحو
مركز الدكتورة: الانسان والمجال في العالم المتوسطي
جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط
المغرب

ملخص البحث

إن منتزه جيوبارك مـــكْون في الأطلس الكبير الأوسط، أصبح يعرف تدخلات نوعية من طرف الفاعلين المؤسساتيين والفاعلين المحليين، على شكل مشاريع تنموية انتقائية للمجالات الجغرافية ذات الوفرة في الموارد التراثية، والتي تزخر بمؤهلات طبيعية وبشرية، يمكن تأصيلها وتسخيرها كرافعة للتنمية المستدامة متعددة الأبعاد: "اقتصادية، اجتماعية، ثقافية، وبيئية" الأمر الذي حفزنا الى تسليط الضوء على إشكالية تثمين منتجات الرستاق وانعكاسها في أهم التحولات السوسيو–اقتصادية والمجالية العميقة والجذرية، خاصة أمام التفاعل الإيجابي للأهالي والتعاونيات الرائدة التي أصبحت تؤثث تراب الإقليم، مع الاستراتيجيات الرسمية المخصصة لتنمية السياحية وتنمية القطاع الفلاحي التضامني.

الكلمات المفاتيح

منتزه جيوبارك مـــكْون، الفاعلين المؤسساتيين، الفاعلين المحليين، تثمين، الرستاق، منتجات الرستاق.

Abstract

The Geo-park of M'Goun in the Middle High Atlas has become Known for its qualitative interventions by institutional and local actors, in the form of selective development project for geographical areas rich of cultural heritage, and naturel resources, which can used as a lever for sustainable development with multiple dimensions; economic, social, cultural, and environmental.

For this reason, we allowed our self to shed light on the problem of valuing local products, and to understand their deep and radical impact in the most important socio-economic and spatial transformation. Especially in the positive interaction of locals cooperatives that have become an important local actors of the region, with the official strategies dedicated to developing sustainable tourism and developing the solidarity agricultural sector.

مقدمة:

يتميز السياق الخاص لإشكالية البحث، بتضاعف حجم التحديات السوسيو–اقتصادية والبيئية التي يوجهها منتزه جيوبارك مـــكْون، خاصة أمام تفاقم حدة التفاوتات المجالية، وعدم الإنصاف المجالي في توزيع الأنشطة الاقتصادية المذرة للدخل، وتراتبية في توزيع التجهيزات العمومية[1]. فالمنتزه يبقى منطقة جبلية متضرسة ذات إمتداد مجالي، ذات الصعوبة في الولوجية، والتي مازالت تسجل في جيوبها حسب الإحصائيات الرسمية، أرقام قياسية ومهمة في معدلات الفقر والأمية تفوق 40 في المئة (HCP, 2014). الأمر الذي يساهم في هجرة الأهالي نحو المدن الكبرى والخارج، نتيجة تحول سلوكيات ونمط عيش الأهالي في استغلال واستنزاف الموارد الطبيعية، وأيضا بتوالي الأخطار والكوارث الطبيعية التي تتربص بالمنتزه كموجات الجفاف والبرودة أو الصقيع، والفيضانات أو السيول الناتجة عن الأمطار الرعدية المفاجئة والدورية، الحرائق، واندثار أو تراجع الغطاء النباتي، مع انقراض أصناف عديدة من أنواع النبيت والوحيش ذات الأنواع والأصناف القبيسة في وسط طبيعي جبلي هش وعطوب، مما يهدد تسريع دينامية تدهور الأراضي[2] واستدامة الموارد الطبيعية، خاصة في ظل التغير المناخي، والتنافسية المجالية أو الصراع في تعبئة أو تحويل الموارد المائية في إطار التكامل المجالي بين العالية والسافلة، الأمر الذي يهدد السلم الاجتماعي، الأمن الغذائي، والاكتفاء الذاتي لمجموعة من الفلاحين الصغار، الذين يعتمدون على الفلاحة المعيشية التضامنية كركيزة أساسية لنشاطهم الاقتصادي. إن هذا المقال ينبني أساسا في مضمونه على محاولة فهم أولا، ثم إبراز العلاقة الموجودة بين استراتيجية الفاعلين المحليين في تثمين منتجات الرستاق، وبين استراتيجية تنمية منتزه جيوبارك مـــكْون من طرف الفاعلين المؤسساتيين. مما يدفعنا إلى طرح عدة تساؤلات محورية تثير فضولنا، لعل أهمها:

- ✓ كيف للمنتجات الرستاق أن تشكل رافعة لمعالجة إشكالية التنمية المحلية المستدامة في بمنتزه جيوبارك مـــكْون؟ وما مدى مساهمة تثمين منتجات الرستاق في تحسين مستوى عيش الأهالي؟
- ✓ كيف يمكن لمنتجات الرستاق المحلية كمورد ترابي أن تكتسب شارة التميز تسمية المنشأ، أو ترميز البيان الجغرافي المحمي؟ أو أن تستفيد من label géo-parc في إطار تسويق منتجات الرستاق؟ وهل يتم إشراك الساكنة من أجل تحقيق هذا المبتغى؟
- ✓ ماهي الانعكاسات والمخاطر المرتبطة بتبخيس وعدم تأصيل التراث الجيني لمنتجات الرستاق، وحصر استفادة فئة قليلة من الفلاحين الصغار، دون أخذ بعين اعتبار تعميم التجربة على جميع الأهالي؟

فرضيات البحث

- ➢ فرضية 1: منتجات الرستاق تساهم في التنمية السوسيو–إقتصادية للأهالي، وتحسين مستوى عيشهم.
- ➢ فرضية 2: لا تساهم منتجات الرستاق في تحقيق القيمة المضافة للأهالي والمجالات التي تعج أو تحتضنها، وتبقى حكر على فئة دون غيرها من المستهلكين والمنتجين.
- ➢ فرضية 3: بالرغم من وجود تعاونيات فهي تعتمد على منتجات الرستاق لم تستطع الوصول إلى النتائج المرغوب فيها، نظرا لكونها تفتقد إلى الإشعاع المجالي الكفيل بمساعدتها على الحصول على الترميز الجغرافي وتسمية المنشأ أو شارة التميز.
- ➢ فرضية 4: ربما السلسلة الإنتاجية من الإنتاج الى التسويق طريقة فيها خلل على أحد المستويات، أو جلها وهذا ينعكس على المداخيل بالنسبة للفلاحين الصغار.

أهداف البحث

تهدف هذه الدراسة إلى جرد منتجات الرستاق التي يزخر بها هذا المجال، مع تتبع وتقييم حصيلة استراتيجية الفاعلين المؤسساتيين والفاعلين المحليين في تشخيص، تدبير، وتثمين منتجات الرستاق والدراية المرافقة لها في منتزه جيوبارك مـــكْون. في محاولة لتقييم مدى مساهمة وانعكاس هذا التثمين في التنمية السوسيو-إقتصادية للساكنة المحلية، وفي تنمية الجماعات الترابية التي تحتضنها وتعج بها.

المنهجية المعتمدة في انجاز البحث

منهجيا، وبالنظر لطبيعة الموضوع اعتمدنا المنهج الكيفي، مستندين في ذلك على بعض البحوث والمقالات المرتبطة بالإشكالية المعالجة، أو بمجالات متشابهة من حيث الخصوصية المحلية مع مجال بحثنا. مع التعرف والتنقيب على أهم الاستراتيجيات أو الأدوات والتقنيات لتثمين المنتوج والدعاية له، وآثار انعكاس مظاهر هذا التثمين على المجال وتحسن مستوى عيش الأهالي، فقد قمنا بإجراء مقابلات ميدانية مع رؤساء التعاونيات الرائدة في هذا المجال خاصة: تعاونية آيت بوولي لنسيج الزرابي الأمازيغية وتثمين منتجات الرستاق، التعاونية الفلاحية للمنتجين الفلاحيين آيت بوكماز لتثمين التفاح والجوز، تعاونية مناحل المغرب "العسل"، وإتحاد تعاونيات العسل تادلة أزيلال، والتعاونية الفلاحية آيت بواولي "لتثمين الجوز"، والتعاونية النسوية أمكار "للأعشاب الطبية والعطرية"، والتعاونية النسوية تيتماتين "لتثمين الوز" وتعاونية دمنات لتثمين الخروب ومشتقاته.

مع اجراء مقابلات ميدانية مع بعض الفاعلين المؤسساتيين في منتزه جيوبارك مـــكْون، خاصة الجهة وجمعية جيوبارك مـــكْون، والمديرية الجهوية والإقليمية للفلاحة، والمديرية الإقليمية للمياه والغابات ومحاربة التصحر بأزيلال، وكذا الساكنة المحلية أو أصحاب الدراية المحلية خاصة فئة الفلاحين الصغار.

مع التركيز على الأشخاص الموارد، لتجميع المعطيات وفق Analyze SWOT لتشخيص واقع حال تثمين منتجات الرستاق من طرف الفاعلين المؤسساتيين، والفاعلين المحليين، وذلك لمعرفة الأسباب والعوامل المحركة أو المحددة للظاهرة المدروسة، وفق مؤشرات كمية ونوعية للتتبع والتقييم.

فهذه الدراسة سنعمل من خلالها على تعميق البحث لمحاولة ابراز أهم التحولات المجتمعية، والتطورات المجالية المصاحبة لهذه الدينامية المتسارعة، وانعكاس ذلك على المجال والمجتمع. ولتدقيق الفهم وفك رموز ومتغيرات هذه المعادلة ضمن الاقتصاد المحلي والجهوي، سنقوم بتحليل وتأويل المعطيات الكمية والنوعية، واسنادها بمعطيات البحث البيبليوغرافي ونتائج ميدانية، في محاولة لرسم ملامح مقال بحثنا، ببصمة جغرافية ذات المقاربة الترابية والنسقية، مع محاولة الانفتاح على باقي التخصصات.

مجال البحث:

يقع منتزه جيوبارك مـــكْون بإقليم أزيلال في جهة بني ملال خنيفرة، تحده من الشمال مدينة بني ملال، وجنوبا مدينة أزيلال، وتحده من الشمال الغربي الطريق الرئيسية 24 التي تربط بين بني ملال وقلعة السراغنة؛ ومن الغرب طريق بزو-دمنات وتساوت، ومن الجنوب الشرقي مرتفعات إيغل مـــكْون. فهو يتكون من 15 جماعة ترابية، ويمتد على مساحة (5730 كلم مربع).

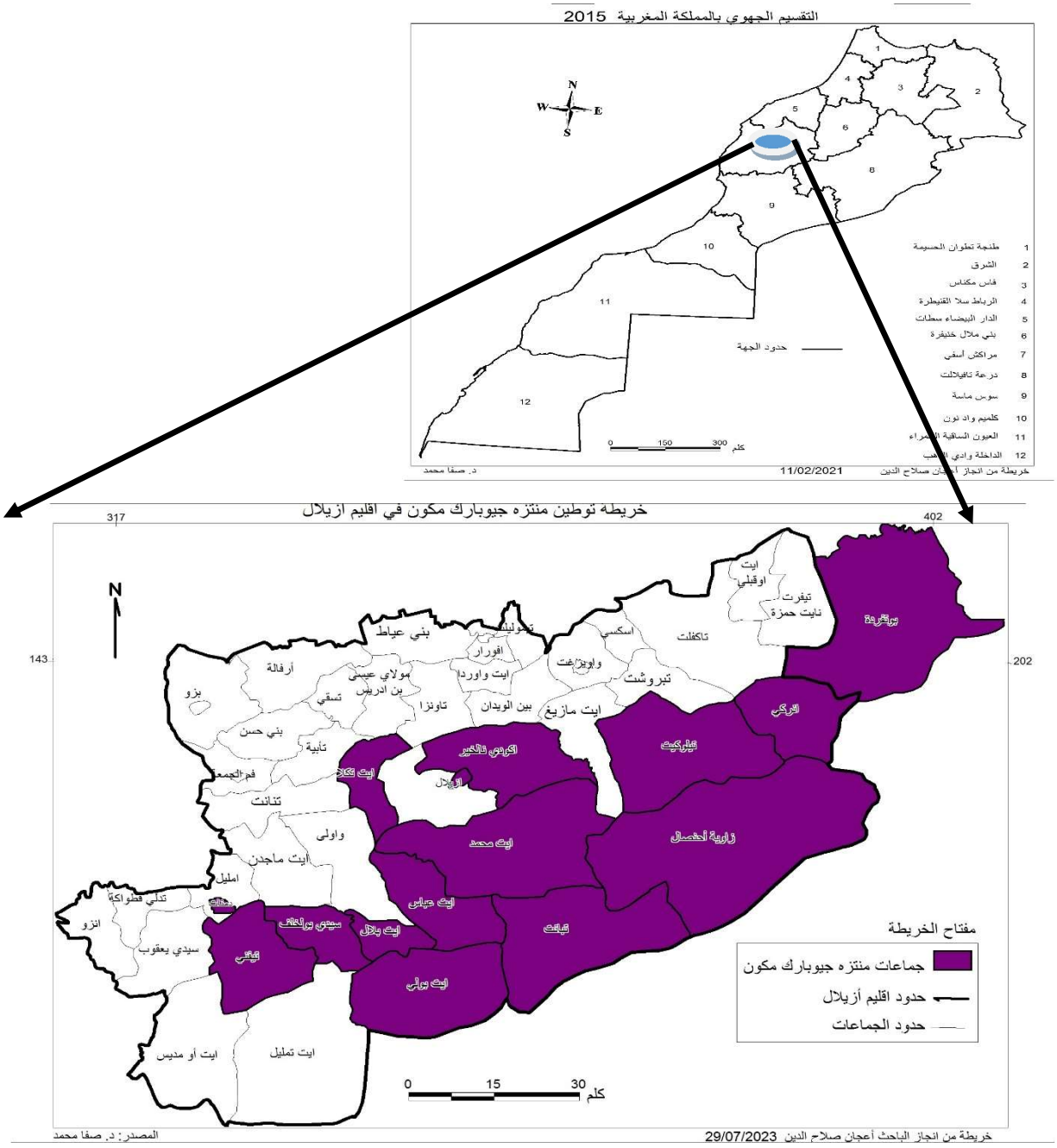

الخصوصية الطبيعية والبشرية لمنتزه جيوبارك مـــكون

الخصوصية الطبيعية

فمجال الدراسة يوجد في الأطلس الكبير الأوسط الكلسي، ومعظم الانحدارات القوية والمتوسطة تهيمن في مجال الدراسة، بينما تتركز الانحدارات الضعيفة في قعر الأودية، إن منطقة الدراسة يهيمن فيها المناخ المتوسطي الجبلي، حيث يتكون المنتزه من منطقتين[3]: إحداهما ذات تهاطل مطري غزير، تتأرجح بين 600 إلى 900 ملم في السنة، ودرجات حرارة تتراوح بين 35 درجة مئوية؛ و 3 درجات مئوية ما بين تادلة وواد العبيد. وأما المنطقة الثانية فتتميز بانخفاض هطول الأمطار من 400 إلى 700 ملم في السنة، مع درجات حرارة بين 30 درجة مئوية و0 درجة مئوية ما بين واد العبيد وأزيلال، حيث يعرف المنتزه تساقطات الثلوج من نوفمبر إلى مايو على ارتفاعات تفوق 1500 متر. فالمنتزه يتميز بتنوع في الأتربة، مع هيمنة الأتربة الضعيفة التطور، خاصة نجد هيمنة الدولوميت المتشقق والذي يعطي أتربة هيكلية ضعيفة التطور، مع تواجد الكلس الجوراسي الذي يسمح بنفاذية مياه الثلوج نحو الفرشة المائية

الباطنية، الأمر الذي يسمح بتخزينها خاصة في اتجاه الطين الترياسي والبازلت الترياسي المتفسخ، والذي ينتج عنه أجود التربات. وهذا الأمر له انعكاس في تنوع الرساتيق والمشاهد الفلاحية التي تؤثث تراب المنتزه.

الخصوصية البشرية

يضم هذا المجال ساكنة تقدر بحوالي 218.000 نسمة، موزعة على خمس عشرة جماعة[4] أربعة عشر منها توجد بإقليم أزيلال وواحدة بإقليم بني ملال وهي "جماعة بوتفردة". ونظرا لشساعة مساحته[5]، باعتباره يمتد على مساحة (5730 كلم مربع)، فهو غني بمواقعه الإيكولوجية وتراثه الثقافي والمعماري وتنوعه البيولوجي والجيولوجي.

ومن خلال الاطلاع على عدة مصادر وخرائط وبعض الصور الجوية يتبين أن هناك تطابق بين حدود المجموعات البشرية وبين حدود الأحواض المائية، باعتبار أننا تبنينا معيار الحدود الجغرافية بمكوناتها الطبيعية (الحوض المائي) والبشرية (المجموعة البشرية) بدل اعتماد التقسيمات الإدارية.

مقاربة الرستاق والتجذر الترابي

ان مفهوم الرستاق يختلف حسب السياق التاريخي أو الطبيعي، الإجراءات القانونية، والأهداف من التحديد لمجاله خاصة بين بلدان البحر الأبيض المتوسط وفق معايير معقدة ومتباينة للصون والحماية، نظرا لأن لكل مجال جغرافي خصوصيته الطبيعية والثقافية. ضمن نسق من التفاعلات الأفقية والعمودية مع الوسط الطبيعي واستغلال الموارد الطبيعية. ففي مقال[6] (د. بديدي وأخرون، 2021) نجد أن مفهوم الرستاق تم تعريفه على الشكل التالي: "الرستاق حسب (Bertrand G, 1968) هو عبارة عن وحدة إيكولوجية تتواجد ضمن محاط (Finage) ومستغلة من قبل مالكين لديهم استغلالية أو أكثر. تتمتع بنفس المؤهلات وتحمل نفس المنتوجات، وقد تكون بصفة دائمة أو تدخل ضمن نظام للتناوب الزراعي. فالرستاق بذلك، هو مجموعة من المشارات المتجانسة، التي تتميز بنفس الخصائص الإيكولوجية وتخضع لنفس نمط الاستغلال. ويعد التجانس، في هذه الحالة، من حيث نوعية المنتوجات وتقنيات الإنتاج، ووجود قواسم مشتركة بين الفلاحين، معيارا لتحديد مفهوم الرستاق. فهو يعتبر المستوى المجالي الأمثل لتنزيل استراتيجية تنموية متكاملة تراعي الخصوصيات المحلية. وقد اتسع هذا المفهوم ليشمل، بالإضافة إلى الخصوصيات الطبيعية المرتبطة بمنطقة الإنتاج مناخ، تربة، إلخ كل ماله علاقة بالخبرات والتقاليد والمهارات الفلاحية، وما تعكسه من تجذر ترابي (Ancrage territorial) يضفي عليها قيمة مضافة متميزة.

وحسب تعريف اليونسكو[7]: "هو مجال جغرافي أنشأه مجتمع انطلاقا من تراكمات تاريخية سمحت بتكوين سمات ثقافية مميزة، ومعرفة، وممارسات قائمة على نظام من التفاعلات بين البيئة الطبيعية والعنصر البشري"[8].

وعموما يمكن صياغة تعريف للرستاق باعتماد الكلمات المفتاح التالية: الخصائص الطبيعية، التاريخ، الثقافة، التميز، المعرفة والممارسة (التفاعل بين الانسان / والوسط الطبيعي) ليشكل بذلك ورشا للمشاريع والسياسات التنموية بالمجالات الجبلية. وقد دعمت الأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة ومنظمة اليونيسكو في دجنبر 2005 اثناء اللقاء الدولي الأول حول حماية الرساتيق في مقر اليونسكو بباريس. الى حد كبير هذا الاهتمام الدولي المتزايد "الميثاق الدولي للرساتيق"[9] ولتنخرط في هذه الدينامية العديد من المنظمات غير الحكومية.

وبما أن المغرب غني بتنوع رساتيقه وتراثه (الزراعي، المعماري، الطبيعي، الثقافي...[10]) المورث عن تاريخ عريق من استغلال الموارد وتنظيم المجال وتشكيل المشاهد والتكيف، كان سباقا في شمال افريقيا الى تطوير منتجات الرستاق وتثمين التراث القروي. لهذا الغرض تعتبر منتجات الرستاق بشتى أشكالها وأنواعها خاصة: "الزعفران، الجوز، اللوز، تفاح وجوز آيت بوكماز وخروب أزيلال،

وعسل الزقوم، زعفران أزيلال، عنب صنف أبوهو في اوارضن والأعشاب الطبية والعطرية والزيتون في منطقة الدير... إلخ" كعينة تمثيلية للمنتجات ذات الجودة والأصالة والتجذر الترابي وذلك لتأصيلها وتثمينها.

فهذه المنتجات تتمتع بالحماية القانونية خاصة قانون[11] 06-25، وبعضها حصل على شارة البيان الجغرافي المحمي "تفاح وجوز ايت بوكماز " عسل الزقوم أو تسمية المنشأ "خروب أزيلال"، وستحصل على شارة اليونسكو وفق معايير محددة، خاصة "زعفران أزيلال" لأن المنتزه حصل على شارة اعتراف اليونسكو كتراث عالمي استثنائي ضمن الشبكة الدولية لجيومنتزهات اليونسكو. فالخروب حسب (SBAY, 2008) نوع زراعي-غابوي ورعوي مهم لتثمين المناطق الهامشية، بحيث يمكن اعتباره حاجزا لوقف جبهة التصحر وزحف الرمال، وللتخفيف من التعرية بأنواعها وأساليبها المختلفة. وله كذلك استعمالات متعددة إما للتزيين أو الأعشاب العطرية والطبية.

والخريطتين أسفله تبرز لنا مدى تنوع في إطار التكامل بين الرساتيق، بمنتجات للرستاق ذات جودة وقيمة استثنائية، والتي تزيد المشاهد الطبيعية والثقافية رونق وجمالية، يمكن استثمارها كعنصر جذب واستقطاب للسياح الأجانب خاصة بهدف تمديد فترة اقامتهم بالمنتزه، بهدف تثمين منتجات الرستاق واستثمارها للتعريف بالدراية المرافقة، كمورد ترابي ضمن معادلة التنمية المحلية والجهوية في منتزه جيوبارك مـــكون.

خريطة 1: التوزيع المجالي لمنتجات الرستاق في إقليم أزيلال بجهة بني ملال خنيفرة

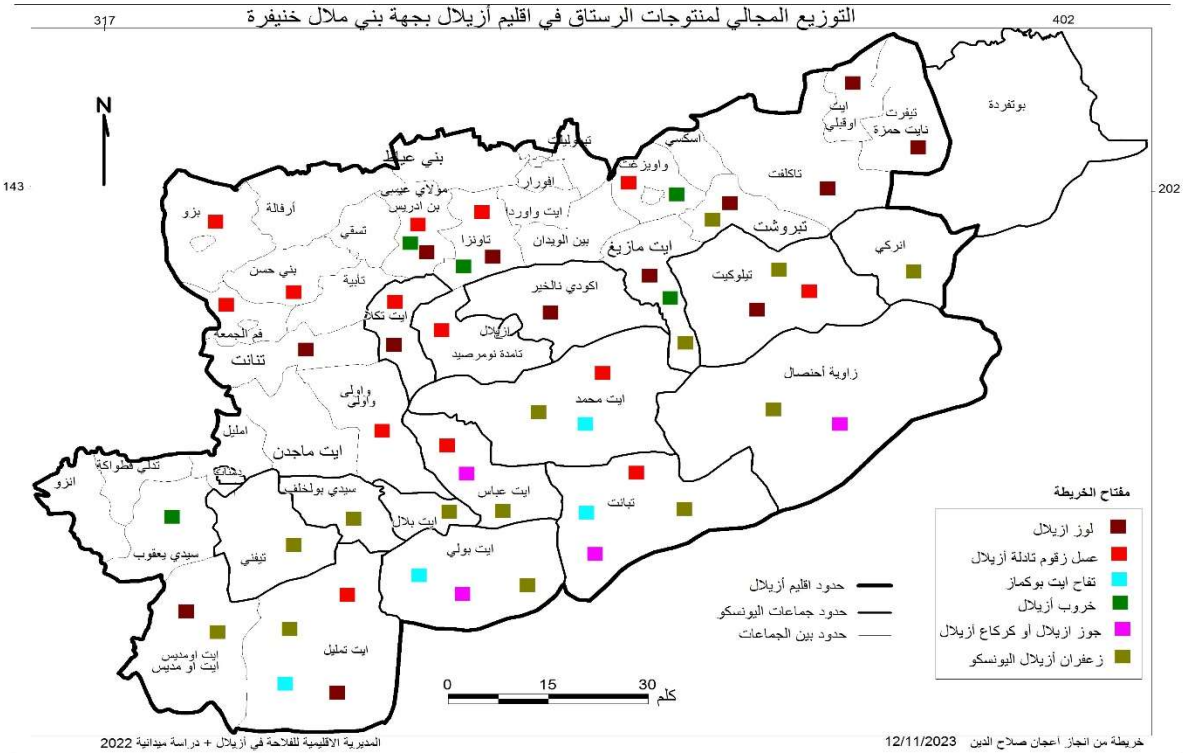

خريطة 2: التوزيع المجالي لخروب أزيلال كمنتوج للرستاق

خريطة التوزيع المجالي لخروب أزيلال كمنتوج للرستاق

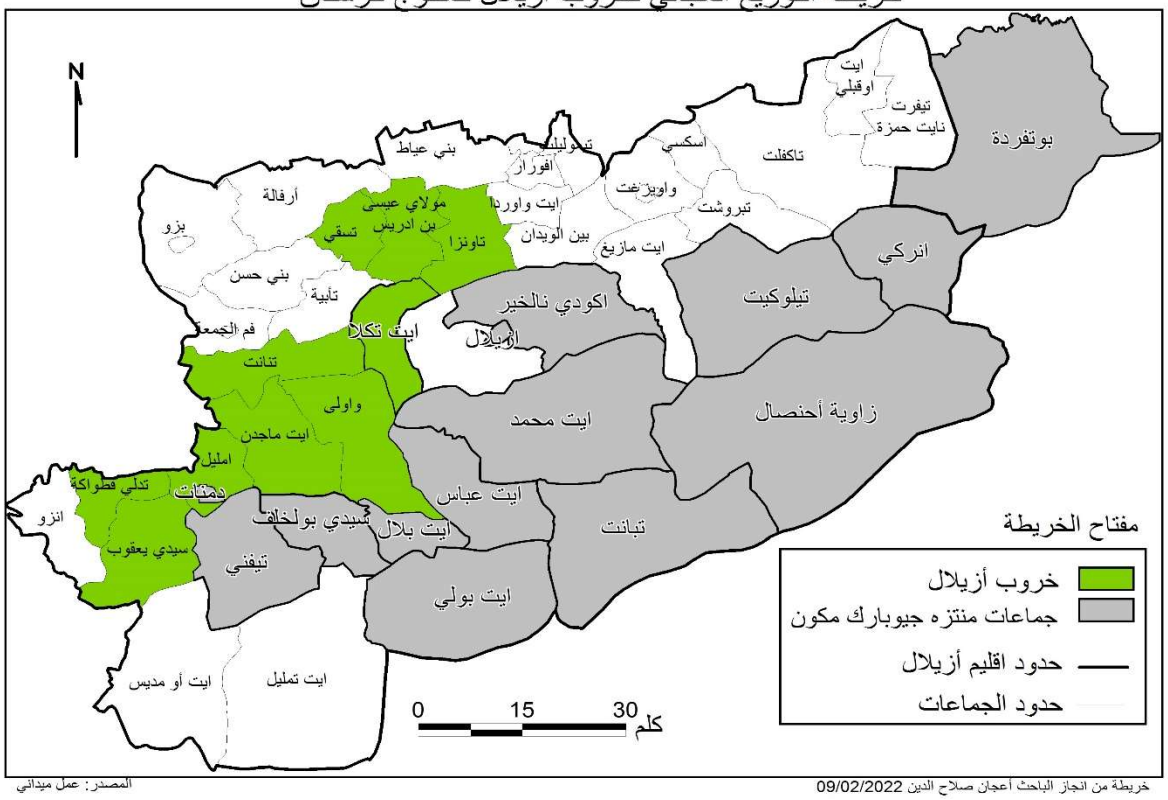

المصدر: عمل ميداني

خريطة من انجاز الباحث أعجان صلاح الدين 09/02/2022

صورة رقم 1 – تفاح الهضبة السعيدة آيت بوكماز، وضخ المياه بواسطة الآبار

عدسة الباحث 2022/08/19

صورة رقم 2 –مركب تثمين المنتوجات المحالية بتبانت، وحدة لتخزين وتبريد التفاح بسعة " 1600 طن"

عدسة الباحث 29/10/2022

فهذه الوحدة تتميز بوجود ثمانية غرف للتبريد التفاح بسعة " 1600 طن"، ووحدة لعصر التفاح وتقطير خل التفاح، فهناك رغبة لتطوير الإنتاجية في قطاع التفاح من 12 طن الى 17 طن في الهكتار، على مساحة 575 هكتار من المجموع الإجمالي لمساحة 2600 هكتار، لفائدة 730 فلاح في الجماعات الترابية التالية: تبانت، آيت محمد، آيت بواولي، آيت تمليل. لكن تبقى الطاقة الاستيعابية لهذه الوحدة غير كافية في مقابل ارتفاع الإنتاجية، فمجموعة من الفلاحين غير منخرطين في إطار تعاونية المنتجين الفلاحيين ايت بوكماز، لا يستفيدون من إمكانية تخزين منتوجهم من التفاح في الوحدة، خاصة امام ارتفاع تكاليف الإنتاج وصعوبات التسويق، ناهيك عن بعد مجموعة من الفلاحين في باقي الدواوير عن الوحدة.

دون أن ننسى أنه تم إنشاء وتهيئة وحدة تثمين الخروب في آيت عتاب ضمن برنامج التنمية الريفية للمناطق الجبلية، من طرف المديرية الإقليمية للفلاحة بقدرة إنتاجية 4 طن في الساعة لصالح منتجي الخروب في الإقليم. وذلك لدعم الإنتاج المحلي من هذا المنتوج الحيوي. وذلك في احترام تام لمبدأ «la marche en avant» مع الاستجابة لشروط (loi N° 28/07) ONSSA الهدف الرئيسي لهذه الوحدة هو سحق منتوج الخروب concassage de caroube على المستوى المحلي، لتحقيق القيمة المضافة، وذلك من خلال بيع البذور المستخلصة من الخروب مباشرة للمصنعين على المستوى الوطني والدولي، بدل بيع الإنتاج بالجملة للوسطاء. مع تحضير مسحوق لب الخروب كمنتج نصف نهائي، وبيعه إلى وحدات التصنيع على المستوى والوطني والدولي.

عنب صنف أبوهو في إوراضن

تتمركز زراعة العنب في إقليم أزيلال بمنطقة الوادي بدمنات، على مساحة 450 هكتار، وتنتج سنويا ما بين 25 و 30 طن من فاكهة العنب. وهذا المنتوج منذ القدم كان يستعمل في بدأ الأمر في انتاج المشروبات الروحية[12]. حيث تتشكل مشارات أو رساتيق عنب دمنات في غالبيتها من أصناف محلية كصنف "بوحو" الذي يمثل 70 في المئة من الأغراس، ونوعي "الجيال" و"الأبيض" الذين يكونان بقية الأغراس. ويعتبر صنف "بوحو " من أهم الأصناف المستعملة نظرا لمردوديته العالية والتي تضاهي قدرات الفصائل الأجنبية مثل Muscat de Hambourg; Alphonse lavallee

صورة 3: عنب صنف أبوهو

عدسة الباحث 14/08/2022

جوز أزيلال كمنتوج للرستاق وشارة البيان الجغرافي المحمي

يتضمن الموقع الجغرافي 12 جماعة قروية تابعة لجهة تادلة أزيلال: وهي تبانت، ايت بواولي، سيدي بولخلف، ايت بلال، تيفني، ايت اومديس، تيلوكيت، زاوية أحنصال، تامدا نومرسيد، ايت محمد، أكودي نالخير وايت عباس. ويشهد وجود أشجار قديمة جدا في المشارات التقليدية على قدم هذه الزراعة. وقد أدخل الجوز على نطاق واسع من قبل الفرنسيين في مطلع القرن العشرين، ومنذ ذلك الوقت وهو يكتسي أهمية كبيرة في التراث الثقافي لأهالي، فهو يعتبر من بين المنتجات النبيلة[13] نظرا لشكله بيضوي المتميز، وقشرته جد الصلبة، ناهيك عن لون النواة البني الداكن، ونظرا لكونه يدخل في اعداد عدة أطباق تقليدية محلية، وفي اعداد الحلويات في

المناسبات والأعراس أو المواسم. فهذا المنتوج له شارة البيان الجغرافي المحمي، الأمر الذي يؤهله لولوج الأسواق والتنافس مع نفس المنتجات ذات الجودة المتشابهة، وهذا سيكون له انعكاس إيجابي في تحسين مستوى الدخل الفردي للفلاح، مع تحسين مستوى عيشه، مما يستدعي إعطاء أهمية لهذا المنتوج ذو التجذر الترابي، باعتباره مورد ترابي ذو سمعة تاريخية يمكن تسخيره للنهوض بالمجالات التي تحتضنه وتعج به في إقليم أزيلال، لأهمية ذخيرته الجينية وقيمته الغذائية، والتي لها انعكاس إيجابي في تقوية القدرات الذهنية للمستهلك، وفي صون التربة واستدامة باقي الموارد الطبيعية.

واقع حال منتجات الرستاق بين الفرص، الإكراهات، المخاطر

إن معظم الموارد الترابية لم يتم تثمينها بشكل مطلوب، رغم كون رساتيق المنتزه تؤثثه العديد من المنتجات ذات القيمة المنفردة والاستثنائية، مع العلم أن هذه المنتجات يمكن أن تشكل رافعة للتنمية المحلية، إذا تم تثمينها بالطريقة الملائمة وفق صيغ متباينة تتناسب والخصوصية المحلية، أو وفق معايير تراعي شروط الجودة[14] العالمية من حيث (المردود /المردودية) لولوج الأسواق، والمعارض المحلية والجهوية أو حتى الدولية.

- للإشارة، أن هذه المنتجات ذات الجودة العالية، ونظرا لما يمكن أن تحققه من مداخيل جد مهمة يمكن تسخيرها لتحسين مستوى عيش الأهالي، وصون البصمة الإيكولوجية للمنتزه ومحيطه. كما أن عملية استثمار هذا الموروث الطبيعي والثقافي على النحو الأمثل، سيمكن من تنزيل مشروع ترابي مندمج ومستدام بالمجال الترابي لهذا المنتزه، مما سيزيد في إشعاعه على المستوى المحلي، الاقليمي والجهوي أو حتى على الصعيد الدولي ضمن الشبكة الدولية لجيو منتزهات. إن صعوبة الحصول على التمويل وتسويق منتجات الرستاق (Produits de terroir) في الأودية بدون طرق معبدة، يمثل مشكلا مركزيا في منتزه جيوبارك مـــكْون، بحيث من النادر وجود هياكل تسويق مشتركة من شأنها أن تقلل من تكاليف النقل. بالإضافة إلى ذلك فإن نقص سعة التخزين، وتذبذب أسعار المنتوج في الأسواق[15] يجبر المنتجين على البيع في وقت الحصاد، مما يؤدي إلى انخفاض هامش الربح بالنسبة للفلاح. وهذا يتبين أيضا من خلال التشخيص الذي خضعت له مجموعة من التعاونيات في جهة بني ملال خنيفرة، في إطار مشروع التعاون المتعلق بالإقتصاد الإجتماعي والتضامني من طرف تعاونية الخدمات[16] "Siaq.Int"، والذي نستنتج منه أن هناك صعوبات على مستوى تسويق المنتوجات المختلفة السياحية، خاصة المتعلقة بالحرف التقليدية ومنتجات الرستاق ذات الإشعاع المحلي الجهوي والدولي. مع كثرة الوسطاء وصعوبة الحصول على التمويل لفائدة هذه التعاونيات، والعجز عن إعداد مشاريع تعاقدية محلية، مع ضعف تعبئة الموارد البشرية المؤهلة، مما يؤكد فرضية أن السلسلة الإنتاجية من الإنتاج الى التسويق طريقة فيها خلل على جل المستويات، وهذا ينعكس على المداخيل بالنسبة للفلاحين الصغار. وبالرغم من وجود تعاونيات فهي تعتمد على منتجات الرستاق لم تستطع الوصول إلى النتائج المرغوب فيها، نظرا لكونها تفتقد إلى الإشعاع المجالي الكفيل بمساعدتها على الحصول على الترميز الجغرافي وتسمية المنشأ أو شارة التميز.

خاصة امام غياب اشراك الأهالي، لتحقيق المبتغى من حصول منتجات الرستاق على شارة البيان الجغرافي المحمي، وتعميم التجربة على تراب المنتزه. اضافة الى أن منتجات الرستاق لا تساهم في تحقيق القيمة المضافة للأهالي والمجالات التي تعج أو تحتضنها، وتبقى حكر على فئة دون غيرها من المستهلكين والمنتجين. خاصة أمام تراجع وتفكك بعض الأعراف والتقاليد في تدبير الإرث الطبيعي المشترك، نذكر على سبيل الاستئناس أبحاث إلينور أوستروم[17] التي حصلت سنة 2009 على جائزة Nobel في الإقتصاد، حيث ركزت طيلة حياتها وأبحاثها الأكاديمية على إثبات أن "الأهالي المحليين بصفة عامة، بمقدورهم وضع قواعد وآليات الحكامة المحلية للتدبير المستدام والعادل للموارد الطبيعية المشتركة، بالإعتماد على الأعراف التقليدية الخاصة بكل مورد طبيعي خارج إطار المؤسسات الرسمية". وذلك على حساب ظهور وانتشار مؤسسات عصرية كالتعاونيات، والتي تدعمها الدولة ماديا وتقنيا من طرف وكالة التنمية الفلاحية ومخطط المغرب الأخضر[18]؛ أو عبر مجموعة من المبادرات والتحفيزات كالمبادرة الوطنية للتنمية البشرية، أو إستراتيجية

"الجيل الأخضر 2020-2030". والتي يكرسها ارتفاع الطلب في الأسواق الداخلية والخارجية على منتجات الرستاق ذات قيمة غذائية وتجذر ترابي، وتطور نمط عيش الأهالي في المدن الكبرى وانفتاحهم على السياحة الإيكولوجية والسياحة الجبلية كبديل للسياحة الشاطئية. فهذا المقال يبقى جزء من الكل، لطرح قضية تثمين منتجات الرستاق، التي تعتبر العمود الفقري ضمن برامج التنمية ومخططات التهيئة لاستراتيجية الفاعلين المؤسساتيين، لتنويع العرض الفلاحي والسياحي، واستراتيجية الفاعلين المحليين الرامية إلى تنمية المجالات الجغرافية التي تحتضنها أو تعج بها. وفق حكامة محلية تراعي اشراك الأهالي في التثمين والتدبير المستدام للموارد الطبيعية للأجيال المقبلة.

إن هذا الاختيار الاستراتيجي من شأنه أن يساعد الفلاحين الصغار بالمناطق الجبلية في الوصول إلى فلاحة متعددة قادرة على الـــتأقلم والتكيف مع التقلبات المناخية، خاصة أمام التفاعل الإيجابي للأهالي والتعاونيات التي أصبحت تؤثث تراب الإقليم، مع الاستراتيجيات الرسمية المخصصة لتنمية السياحية وتنمية القطاع الفلاحي التضامني.

فهذا النموذج الاقتصادي البديل والرحيم بالبيئة، الذي نسعى إلى تكريسه في إطار مقاربة صون –تنموية (إدريس شحو، 2011) عبر إشراك الأهالي في تثمين منتجات الرستاق، وفق صيغ تتباين تراعي طبيعة الخصوصية المحلية أو نوعية المنتوجات حسب سلسلة القيمة من "الإنتاج أو التحويل، مع التخزين، التلفيف نحو النقل والتسويق"، يبقى رافعة أساسية للتنمية المحلية المندمجة، من أجل بروز طبقة مهمة، لا سيما تلك التي تخص صغار الفلاحين في مجالات جبلية هشة ونائية، ذات موروث ثقافي ودراية محلية موروثة. خاصة أمام امكانية تشبيك مختلف الفاعلين الترابيين على مختلف المقاييس محلية جهوية وطنية: الخبراء والباحثين، الجماعات الترابية، الجمعيات، التعاونيات والساكنة المحلية، الإدارات العمومية، والقطاع الخاص، ضمن حكامة ترابية، في إطار التضامن والانصاف المجالي أو التماسك الاجتماعي، عبر تشجيع التعاون بين التعاونيات «ميثاق لتدبير الملك المشترك»، وشركات «رابح–رابح» لتثمين منتجات الرستاق والدراية المرافقة لها، فهذه المقاربة النوعية تعتمد على ربط المنتوج برستاق معين في منطقة جغرافية بحدود واضحة كمنتزه جيوبارك مـــكْون، تبقى أحد البدائل المهمة لتحقيق التنمية المستدامة، والتي يمكن تعميمها على العديد من المناطق الجبلية المغربية ذات الخصوصيات المتقاربة. وهذ ما سبق أن أكده د. موسى المالكي[19] حيث اعتمدها كمقاربة تقدم جوابا لمعادلة التنمية، والحفاظ على الموارد في نفس الوقت من خلال استعراض رستاق غيغاية بالأطلس الكبير الغربي، وباعتبارها أحد المداخل التي أضحت تفرض نفسها لتنمية المناطق الجبلية، خاصة في مجال تطوير الفلاحة العائلية التضامنية.

فقد أبدع الإنسان الأمازيغي في المحافظة على تدبير هذه الموارد الطبيعية، في إطار إقتصاد فلاحي عائلي تضامني الذي حسب د. المختار الأكحل[20] "يشكل نموذجا للإنتاج يتميز بقدرته على التجديد والتأقلم وتثمين المؤهلات المحلية، إضافة إلى تعدد مزاياه الإجتماعية والإقتصادية والبيئية، التي يتعين دعمها من أجل الوصول إلى فلاحة متعددة ومتجذرة في التراب ومستدامة". دون أن ننسى من خلال استحضار عمل الباحث (عبد الحكيم بن عاشور،2021) لبعض المشاريع التي تم تطويرها في البلاد انطلاقا من مقاربة الرستاق، حيث سجل بعض الملاحظات نذكر منها: خطر(déterritorialisation) القضاء على خصوصيات الحيز الجغرافي، انطلاقا من فك الارتباط بين المورد والحيز الترابي الذي ينتجه، مما يؤدي في بعض الأحيان الى القضاء على خصوصية المورد /المنتوج الذي أصبح يتطور وينتشر في مكان اخر ولم يعد مرتبطا بموطنه الأصلي: (تعاونيات للأركان بسلا، بركان...) وقد يعمل تطوير سلسلة الإنتاج على إزالة المنتجين المحليين من عملية التثمين، مما يفسح المجال أمام من يستطيعون تبني معايير وتقنيات جديدة: المستثمرون الخواص، مثل الجبن من شفشاون الذي أضحى انتاجه يعتمد على أصناف ماعز مستوردة. مما يجعلنا أمام تحديات واشكالات حقيقية تصاحب عملية تثمين منتجات الرستاق، وهو ما يحتم علينا تطوير البحث ومضاعفة الجهود على مستوى الإشكاليات والمواضيع التي نعالجها لمواكبة هذه الدينامية، وكسب هذه التحديات. وحسب د. محمد بريان[21] فتثمين وحماية منتجات الرستاق وتأصيلها يتم بواسطة قوانين تأصيل رسمي ووطني، مع وضع علامات المنتوجات الفلاحية كالزعفران وأركْان .. أما **التسطيح**[22] فيعني القضاء على

الخصوصيات والدراية المحلية بنقلها إلى أماكن غير المكان الذي نشأت وتطورت فيه، بعيدا عن التجذر الترابي، مما يقضي على فكرة أن المغرب بلد التنوع الثقافي، ويبعثر التمثلات لدى السياح الأجانب.

وهذا راجع إلى أن القانون الذي رتب مثلا منتوج أركان في نفس الوقت قام بترتيب كل الخبرات التي ترافق هذا المنتوج، بحيث لابد من أن ينتج بالطريقة التي كان ينتج بها دائما وليس أن يحول في معمل صناعي بالمدن الكبرى؛ فهذا سيؤدي إلى التبخيس، وفقدان الأصالة مع فقدان الخصوصية المحلية والتجذر الترابي[23]". لهذا الغرض تم اعداد مؤلف[24] المنتجات المحلية المغربية غنى وتنوع، الذي هو عبارة عن بطائق تعريفية مزينة بصور، من اجل التعريف على نطاق واسع، بالثروة الوطنية الغنية والمتنوعة من هذه المنتجات، بغية تحسيس المستهلك، وخلق جاذبية اتجاه منتجات الرستاق تمكن من تنمية الشراكة بين مختلف فاعلي القطاع على المستوى الجهوي والمحلي.

يتبين على ضوء المعطيات السابقة، أن هذه المنطقة الجبلية تزخر بمؤهلات طبيعية وبشرية متنوعة وأصيلة كما سبق ذكره، الشيء الذي يضفي عليها صفة رستاق، خاصة أن شرطي التملك الإجتماعي والهوية الترابية، حاضران بقوة من خلال مجموعة بشرية إستقرت بالمنتزه منذ قرون عديدة، فقامت على إعداد مشارات مجهرية على شكل مصطبات أو درجات في عمق الرساتيق الجبلية بالأطلس الكبير الأوسط، فقد اكتسبت هذه الجماعة البشرية ذات الأعراف التقليدية عبر تاريخها في المنطقة مجموعة من المهارات والتقنيات، والطبائع الثقافية المتميزة، والتي تتأسس على نظام من التفاعلات الأفقية والعمودية بين الوسط الطبيعي والعوامل البشرية. وهذه التقنيات أو الدراية الملازمة لمنتجات الرستاق في المنتزه تكشف عن الأصالة والتجذر الترابي، مما يتطلب ضرورة تعزيز فرص التواصل بين المنتجين والباحثين أو السواح المهتمين بهذا التراث اللامادي، من أجل جرده وترقينه، مع توظيفه في مخططات التهيئة وبرامج التنمية المحلية والجهوية من طرف الفاعلين المؤسساتيين والفاعلين المحليين، خاصة التعاونيات التي أصبحت تؤثث المنتزه بمنتوجات ذات جودة عالية، ينقصها فقط الاشعاع المجالي الكفيل بمنحها شارة التميز، ومستهلك دائم مهتم بتذوق الأطباق التقليدية الناتجة عنها في مواقع تتباين من حيث الخصوصية الجغرافية لتأصيل التراث وتجنب التسطيح والتبخيس.

خاتمة

وفي الختام، يتبين أن هناك مجموعة من المقاربات النوعية "مقاربة الرستاق أو الاقتصاديات الرفيعة" التي يمكن تبنيها في مجالات اعتبرت منذ بداية القرن المنصرم "المغرب غير النافع"، نتيجة التهميش الناتج عن الاستراتيجيات المجالية وتوطين الاقتصاد الرأسمالي، علما أن التفاوتات المجالية لا يمكن أن تنسب للحتمية الطبيعية الجغرافية والتاريخية، فهناك عوامل محددة تتحكم في توسع الظاهرة وفق نهج أو منهج علمي وعملي، ووفق سيناريوهات إستشرافية مبنية على مؤشرات كمية وكيفية للتتبع والتقييم والمحاسبة. إن منتزه جيوبارك مـــكون في إقليم أزيلال، يزخر بالعديد من المؤهلات الطبيعية والبشرية المتعددة والمتباينة: مواضع طبيعية ذات أهمية أحيائية وبيئية، مواقع رامسار، مشاهد كارستية نادرة ومشاهد جيومرفولوجية تاريخية، مآثر ومشاهد معمارية أصيلة، ناهيك عن التراث الجيولوجي، والموروث الثقافي الأصيل والمتجذر في الترب، إلى جانب منتجات الرستاق والدراية المرافقة لها... الأمر الذي دفع الفاعلين المؤسساتيين لتشجيع الجمعيات والتعاونيات التي جعلت من هذه المجال الجبلي، مختبرا للتنشيط السياحي عبر تنزيل برامج التنمية الفلاحية، بهدف فك العزلة والنهوض بالقطاعات الاجتماعية، دون أن ننسى سياسة التنمية التشاركية عن طريق التعاون الدولي عبر منظمات غير حكومية، للبحث عن عقد شراكة مع جمعيات وتعاونيات محلية. مع رغبة الفاعليين المؤسساتيين والفاعلين المحليين في تنويع المنتوج السياحي عبر استثمار البعد الثقافي، والتعرف أو التنقيب على الدراية المحلية التي تميزها عن باقي المجالات الجغرافية، وذلك من أجل استقطاب سياحي مسؤول ومستدام.

الهوامش:

[1] (Abderrahim MARZOUKI, 2016) « Centres ruraux et développement des montagnes au Maroc : cas du Haut Atlas Central ». In LAKHAL, M. F. (2016). Organisation et Aménagement de l'espace Rural au Maroc : Recherche et Actions. RABAT : Ed Maarif Al jadida.

[2] (Ibtissam Saheb Eddine et Abdellatif Khattabi, 2024) « Évaluation de la dégradation des terres dans le Géoparc du M'Goun (Haut Atlas central, Maroc) »

في كتاب الموارد الطبيعية بجهة بني ملال– خنيفرة : التشخيص والتدبير والتثمين . تنسيق حسن واخير وآخرون، منشورات جامعة السلطان مولاي سليمان كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مختبر دينامية المشاهد والمخاطر والتراث، وجمعية الباحثين الجغرافيين في الماء والبيئة.

[3] http://www.unesco.org/new/en/natural-sciences/environment/earth-sciences/unesco-global-geoparks/list-of-unesco-global-geoparks/morocco/mgoun/

[4] البطاقة التقنية للمنتزه جيوبارك مكون

[5] يتكون المنتزه من الجماعت الترابية التالية: أزيلال 950,3 هكتار، دمنات 948,1 هكتار، تيلوكيت 46610 هكتار، زاوية أحنصال 99770 هكتار، تبانت 48820 هكتار، آيت محمد 56740 هكتار، آيت تكلا 12900 هكتار، أكودي الخير 29010 هكتار، آيت عباس 23510 هكتار، آيت بولي 40550 هكتار، آيت بلال 8116 هكتار، سيدي بولخلف 14350 هكتار، تفني 25630 هكتار، انركي 23230 هكتار، بوتفردة 72610 هكتار.

[6] "التثمين السياحي لمنتوجات الرستاق: أداة لتنمية المجالات الخلفية لجهة الرباط -سلا -القنيطرة" في كتاب السياحة الايكولوجية: أداة للتنمية والتنافسية الترابية بجهة الرباط- سلا- القنيطرة، الطبعة الأولى، منشورات جامعة محمد الخامس –الرباط، سلسلة أطلس جهات المغرب

[7] (M. Berriane, 2017) « L'approche terroir : un nouveau modèle de développement pour les arrière-pays au Maroc ? » Royaume du Maroc Académie Hassan 2 des Sciences et Techniques, Séminaire du collège Etudes Stratégiques et Développement Economique.

[8] Rencontres internationales planète terroirs, UNESCO, 2005. Paris

[9] CHARTE DES TERROIRS PROPOSE PAR association TERROIRS AND CULTURES, rencontre internationaux « Plante Terroirs » UNESCO 10 NOVEMBER 2005
Mas de Saporta CS80017- 34875 Lattes Cedex- Email ; terroirsetcultures@yahoo.fr

[10] Mohamed Berriane, dir. Geneviève Michon, dir. 2017 : Les terroirs au Sud, vers un nouveau modèle ? Une expérience marocaine, Editeur : IRD. 370 pages

[11] الظهير الشريف رقم 1.08.56 الخاص بتنفيذ القانون رقم 25.06 المتعلق بالعلامات المميزة للمنشأ والجودة للمواد الغذائية والمنتوجات الفلاحية والبحرية. فقد حدد القانون هذه العلامات في كل من علامة الجودة الفلاحية، والبيان الجغرافي، وتسمية المنشأ، والمعترف بها من طرف المكتب المغربي للملكية الصناعية والتجارية.

قانون 28-07 المتعلق بالسلامة الصحية للمنتجات الغذائية، الذي ينص على إجبارية الإعتماد أو الترخيص الصحي؛

www.onssa.gov.ma

[12] مؤلف المنتجات المحلية المغربية غنى وتنوع، وزارة الفلاحة والصيد البحري، مديرية تنمية سلاسل الإنتاج، 2017

[13] مؤلف المنتجات المحلية المغربية غنى وتنوع، وزارة الفلاحة والصيد البحري، مديرية تنمية سلاسل الإنتاج، 2017

[14] شروط الجودة العالمية التي تراعي معايير خمسة هي: الجودة الحسية، الجودة التجارية، الجودة التكنولوجية، الجودة الصحية، وكذا الجودة الغذائية.

[15] https://medias24.com/2023/08/01/gousses-de-caroube-le-marche-joue-un-mauvais-tour-aux-speculateurs/

[16] La coopérative de services Siaq.Int a notamment réalisé en 2019 un diagnostic auprès d'une vingtaine de coopératives de la région, dans le cadre du projet Green Job PEJ II de la GIZ

[17]مورين بيرك 2011، سيدة الصنعة ملامح من حياة الينور أوستروم، مجلة التمويل والتنمية .

Workshop in political theory and political analysis, Indian university.

Governing their commons: Elinor and Vincent Ostrom and the Bloomington School
OSTROM Elinor, 2010, la gouvernance des biens communs. Pour une nouvelle approche des ressources naturelles, Bruxelles, Ed. De Boeck

[18] Plan Maroc vert Premiers perspectives sur la stratégie agricole Ministère de l'Agriculture
file:///C:/Users/hp/Desktop/climat-%20change/plan-maroc-vert2.pdf

[19] أستاذ باحث بجامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، شعبة الجغرافيا، الرباط، نفس المرجع السابق ص 254 و 255 و256

د. موسى المالكي 2012، "تثمين المنتجات الجبلية بالمغرب حالة رستاق غيغاية بالأطلس الكبير الغربي" ص 254

[20] أستاذ باحث كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، عضو مؤسس لمجموعة البحث حول الأرياف.

المختار الأكحل 2016، "تهيئة وتنمية المجالات الفلاحية بالمغرب بين مخلفات الماضي ورهانات المستقبل" في تنظيم وتهيئة المجال الريفي بالمغرب: أبحاث وتدخلات، تنسيق المختار الأكحل، عبد العالي فاتح، محمد حنزاز، ص 29

[21] https://www.youtube.com/watch?v=RjlBNQt4Okk

[22] د.محمد بريان أستاذ التعليم العالي الرباط

[23] (M. Berriane, 2017) « L'approche terroir : un nouveau modèle de développement pour les arrière-pays au Maroc ? » Royaume du Maroc Académie Hassan 2 des Sciences et Techniques, Séminaire du collège Etudes Stratégiques et Développement Economique.

[24] مؤلف المنتجات المحلية المغربية غنى وتنوع، وزارة الفلاحة والصيد البحري، مديرية تنمية سلاسل الإنتاج، 2017